التأسيس الترانسندنتالي لفلسفة الجمال عند كانط: مقاربة المبادئ القبلية لملكة الحكم الإستطيقي وموضوعاتها

دة. أسماء خديم، جامعة معسكر

مقدمة:

لم تكن الحدود التي وضعها كانط Emmanuel Kant (**1724**-**1804**) للعقل مطلقة وقطعية، بمعنى أنها ليست من أجل وضع النهايات، بل تحديد لمهام جديدة وتقسيم لحقول معرفية ليست أقل أهمية من المجال النظري. كما أن الاعتراف بحدود القدرة المعرفية بات مطلبا ملحّاً تفرضه آليات العمل، في سبيل إعادة النظر في ما سبق تحقيقه من جهة، وتحديد للغايات التي نرسمها أمامنا من جهة أخرى.

وفي حقيقة الأمر رسم النقد الكانطي لنفسه هذه المعالم منذ الوهلة الأولى؛ فهو يضع حدود ملكة التفكير كما يوجه الانتباه إلى مواطن أخرى يمكن استنطاقها وإخضاعها للقول الفلسفي. وإذا كان مشروع الفيلسوف بدأ بالمعرفة النظرية ثم انتقل إلى العملية مُمَثلة في الأخلاق، وبعدها أعاد طرح السؤال في المجال القيمي والجمالي تحديدا، فإننا سنعيد في مقاربتنا هذه ترتيب البناء طبعا وحسب تصور صاحبه، الذي اعترف لاحقا بأن ملكة الشعور باللذة والألم حلقة تقع بين فلسفة الطبيعة وفلسفة الحرية. (هنا، غ. **2005**: **36**) وبناء على هذا التقسيم سنعمل على رصد طبيعة عمل

ملكة الحكم الجمالي وما الذي يربطها ويفرقها عن مجالي المعرفة والأخلاق.

لقد انشغل كانط بفحص هذه الملكة من جهة طبيعتها، وكذا الشروط القبلية التي تتحكم فيها، وهوما يُعرف بالبحث الترانسندنتالي، فإلى أين انتهى؟

كيف قرأ كانط مفاهيم الجميل، الجمال والكمال، الجليل، الذوق؟ كيف اقترنت الغاية بالحكم الجمالي؟

كيف وظف كانط منهجه النقدي في فهم وقراءة المبحث الجمالي؟

ما التطلعات الكانطية لفلسفة الجمال والفن، وهل تجاوز في استنطاقه للموضوع فلسفات عصره، أم أعاد بناءها؟

فيفهم ملكة الحكم:

يتناول كانط مجال الجمال خلافا لغيره من الفلاسفة الذين ربطوه بالواقع، في شكله المفاهيمي بالوقوف على أهم المعاني والدلالات التي تتضمنها مفاهيم الجمال. ورغبة منه في تصنيف هذا المبحث وتحديد مجاله قام بضبط جملة المصطلحات الخاصة به، كما تجاوز من ناحية أخرى تداولات الفلاسفة الأوائل لها.

أ- موضوعات ملكة الحكم: تتميز الفلسفة الكانطية بثراء جهازها المفاهيمي، وقدرتها على استيعاب أكبر قدر من المعاني

حتى ضمن المفهوم الواحد، وهذا يعود إلى غنى اللغة الألمانية من ناحية، وحرص كانط على استثمار المفاهيم بشكل دقيق وعلمي من ناحية أخرى. ومثل هذا التأكيد مبعثه القناعة التي انطلق منها كغيره من الفلاسفة، بأن سلامة اللغة من سلامة الفكر، وبشكل خاص مخاوفه من الوقوع في أغلاط الماضي كتلك التي طالت البحث الميتافيزيقي. من سوء استخدام للغة وشساعة دلالة اللفظ التي توسع من دائرة المعنى فيبدو غامضا مبهما، هذا فضلا عن غياب مجال الفهم نفسه كما سبق وأن أشرنا سالفا.

لم يخرج كانط عن اهتماماته، بل ازداد عمقا فيها وما اختياره لمجال الجمال إلا امتدادا للبحث الميتافيزيقي الذي شغله لمدة طويلة. وهذا الذي جعل العديد من الفلاسفة يؤمن بأن كل ميتافيزيقا تتضمن على الأقل فلسفة للجمال، فالمشتغل بالميتافيزيقا ينغمس في تفسيراته للوجود حتى يستشعر حسا جماليا خاصاً. (Krantz, E.1882 : 03)أو بمعنى أدق أنه يبدأ أولا بدراسة جوهر الأشياء وكذا طرق معرفة هذا الجوهر، وأي تعريف للوجود يحتوي بالضرورة على نوع من الجمال؛ ذلك أنه يؤسس تسلسلاً بين الموجودات بالقيمة نفسها التي يحملها. (Krantz , E.1882 : 03) وفي محاولة منه لتصحيح الأوضاع اشتغل صاحب النقد على إضفاء العلمية على المبحث الميتافيزيقي، بوضع قوانين لها لتحريرها من القدَر الدوغمائي الذي أحاطها به الفلاسفة، عندما وضعوا لمفهوم الحقيقة دلالة مفارقة أقرب إلى الغيب منها إلى العلم. وقدم هو

البديل في نظرية الصور الخالصة للفهم التي أصلحت مفهوم الحقيقة وفق تصور الفهم نفسه وليس خارجاً عنه. (Krantz ,E .1882 :16)

إذا رجعنا إلى عصر كانط المشبّع بروح العلم والأنوار، نجد أن ذلك الجو قد غيّر حياة الإنسان جذريا، كما أعطاه وسائل التعبير عن عظمته من خلال اختراقه لعالم الطبيعة من جهة وفوق الطبيعة من جهة أخرى. وبعد رحلة طويلة من التغييب والآلية (النظر إلى الإنسان كآلة)، جاءت فلسفة القرن **18** لتحيي إنسانيته وذلك بالاهتمام به في جميع جوانب حياته: المعرفة، الأخلاق والسياسة، والجمال (باومر، ف. **1987**: **106**). لقد وجه هذا القرن اهتمامه لكل شيء، وتغلغل حتى إلى العناصر الباطنة للأشياء والذوات والأسئلة والأحداث. ولم يترك انشغالا بشريا إلا وطرقه؛ ورغبة من العقل في فك الرموز وقراءة أسرار الذات وكشف مواطن عديدة قد تم تغييبها في عصور مضت، كالأحاسيس وطرق التعبير عنها، اتخذ من الشعر والآداب والفنون فضلا عن الفلسفة والعلوم، منافذا ليتنفس ويرضي فضوله وحاجته الدائمة للمعرفة.

بالنظر إلى الأرضية الأنوارية التي انطلق منها كانط، كانت ألمانيا ملاذ الشعر في القرن الثامن عشر وذلك لأنها طبيعيا شاعرية كما وصفها الأستاذ فيكتور كوزان Victor Cousin، فقد عرفت منذ الإصلاحات والنهضة أشعار كبار الشعراء أمثال كلوبستوكKlopstock ، شيلر Schiller وجوته Goethe. (Cousin, V.1829 :17) إن هذا الجو المفعم بالشاعرية والجمال كان مسبوقا بروح التحرر والبحث

عن مواطن الجمال حيثما كانت، وكان ذلك هو أحد هموم وانشغالات كانط.

لم يكن القرن الثامن عشر هو الأول من طُرح فيه السؤال: ما الجميل؟ لكنه مع ذلك قام بتحليله ودراسته من أجل استخلاص علم صارم يتضمن قواعداً ومبادئ خاصة، هو علم الجمال. (Cousin ,V .1829 :28) لقد انشغل كانط بالجمال إلى جانب انشغاله بالمعرفة، ولم يكن من الأوائل الذين بحثوا في الجمال إذ سبقه في ذلك كثيرين، من أمثال أفلاطون ولايبنيز Leibnitz وباومغارتن [Baumgartenألكسندر غوتليبباومغارتن (**1714** –**1762**) أول من قال بعلم الجمال علما مستقلا عن باقي العلوم وأطلق عليه اسم إستيطيقاAesthetica *وهو عنوان أشهر مؤلفاته، والذي اعتمده كانط في تدريسه.*] وغيرهم ممن خاضوا في ذلك المجال. وكعادته يشق كانط لنفسه طريقا يستفيد فيه من آراء السابقين من أجل تجاوزهم وإيجاد الحلول للمتعارضات القائمة، وكان له ذلك بأن جمع أو وفّق بين عقلانية باومغارتنBaumgarten وحسية بوركه Burke (, Cherif T.1983. 05). ومع هذا نجده يُبقي على فكرة باومغارتن في الجمال إذ يعتبره الكمال حين نحس به، إلا أنه أضاف إليه صفة الغائية، من ناحية أخرى يعلي كانط من شأن البحث الجمالي وذلك بالبحث في الشروط الأولية للحكم بالجميل أو حكم الذوق، في حين يعتبره باومغارتن أدنى درجة من المعرفة المنطقية التي يكون الموضوع فيها أكثر وضوحا وقابلية للفهم. (حلمي مطر، أ.**1987**: **107**) وعلى

غرار بحثه في العلم الطبيعي والأخلاق، عكف كانط على البحث في الجمال حيث كتب إلى رينهولد K.L.Reinhold يقول:» أنا مشغول بنقد الذوق، وإني أكتشف في مجاله نوعا من المبادئ القبلية مختلفا عن المبادئ القبلية السابق لي بيانها. ذلك أن ملكات الروح ثلاث: ملكة المعرفة، والشعور باللذة والألم، وملكة الرغبة (الإرادة). وقد وجدت مبادئ قبلية بالنسبة إلى الملكة الأولى وذلك في نقد العقل المحض (النظري)، وبالنسبة إلى الملكة الثالثة في نقد العقل العملي.» (كانط، إ.**2005**: **35**–**36**) وهذا ما يُسميه بالبحث الترانسندنتالي أي استخراج المبادئ القبلية لكل ملكة بمعزل عن التجربة، ثم يستأنف قائلاً:» وأنا أقر الآن بأن في الفلسفة ثلاث أجزاء لكل واحد منها مبادؤه القبلية (...): الفلسفة النظرية، والغائيات، والفلسفة العملية، وثانيتها هي أفقرها في مبادئ التعيين القبلي. وآمل أن أنتهي في فترة عيد الفصح من مخطوط هذه الدراسة الأخيرة، وسيكون عنوانها: نقد الذوق» (كانط، إ.**2005**: **35**–**36**).

يبدو من خلال النص الوارد أن أهمية مبحث الجمال لا تقل عن أهمية مبحثي المعرفة والأخلاق، حتى أنه يعتبر ملكة الشعور باللذة والألم حلقة وصل بين فلسفة الطبيعة وفلسفة الحرية. ومحاولة منه لمقاربة هذا المبحث خصص له أبحاثا ودراسات غاية في الأهمية، حيث رصد لذلك تحليلا لجملة المفاهيم التي كثيرا ما تُوظف في الدراسات الجمالية؛ كمفهوم الجميل والذوق والجليل، ...

فبخصوص مفهوم الجميل يقول:» لكي نميّز الشيء، هل هو جميل أو غير جميل، فإننا لا نعيد تمثّل الشيء إلى الذهن من أجل المعرفة، بل إلى مخيّلة الذات وشعورها باللذة أو الألم. ومن هنا، فإن حكم الذوق ليس حكم معرفة، وبالتالي ليس منطقيا، بل جمالي؛ ونعني بذلك أن المبدأ الذي يعيّنه لا يمكن أن يكون إلاّ ذاتياً. وكل رابطة تمثلات، حتى رابطة الإحساسات، يمكن أن تكون موضوعية ؛ أما رابطة التمثلات بالشعور باللذة والألم فليست كذلك، وإنما تشعر فيها الذات بأنها متأثرة بالتمثّل» (كانط، إ، **2005**: **101**–**102**) يقدم كانط من خلال هذا القول تعريفاً أو بالأحرى تحديدا لمجال موضوع الجمال، بحيث يربطه أولا بالمخيلة، وليس بالذهن وإذا ما أردنا استرجاعه علينا تخيله بواسطة استشعار ما يخلّفه فينا من لذة أو ألم. وأما ثانياً فهو يميّزه عن ما هو منطقي الذي يكون موضوعيا ومستقلا عن الذات، بينما يكون المبدأ المعيِّن لتمثلات الشعور باللذة والألم ذاتياً خالصاً. ومع ذلك يعتقد أحد الباحثين في مجال فلسفة الجمال وهو جوفروا Jouffroy بأن مسألة الجميل لم تُحسم بعد مثلما حُلّت مسألة الخير، بل مازالت عالقة بالنظر إلى طبيعة موضوع الجمال الذي يتماهى بشكل كبير مع الذاتية. (Jouffroy. 1845 : 02).

كما تتفرع مسألة الجميل إلى مسائل أخرى أساسية، فعندما نقول هل هذا الشيء جميل؟ فإننا نميّز في سؤالنا بين قسمين: الأفعال، وتفسير الأفعال، بحيث أنه في تمثل الجميل هناك عنصران: موضوع

خارج عنا، وفي داخلنا ظاهرة أنتجها ذلك الموضوع، والتي تجعل الموضوع الذي أنتجها يبدو جميلاً، فالأفعال هي من جهة خصائص الموضوع، ومن جهة أخرى هي الظاهرة التي ينتجها الموضوع بداخلنا (Jouffroy. 1845 : 03) وعليه فتفسير الأفعال يكمن في معرفة: لماذا يحتكم موضوع ما على خاصية ما وينتج فينا ظاهرة ما؟

وبما أن تفسير الأفعال يقتضي تحصيل المعرفة، يجب تقديم إجابة عن السؤالين التاليين: ما خصائص الموضوع المسمى جميلاً؟ وما الظاهرة التي ينتجها فينا الموضوع المُسمى جميلاً؟ هناك حل إجرائي للمسألة حيث لابد من افتراض خصائص مميزة لذلك الموضوع تجعله يبدو جميلا، فهو يتضمن جملة من الخصائص المرئية أو المُدركة حسيا والتي تصنفه كموضوع جميل، فعندما نحكم على قصيدة ما بأنها رائعة ذلك لأن فيها تفاصيلا ما تلقتها الأذن فحكمت عليها بالجمال، وإذا ما راق لنا منظرا من الطبيعة فهذا لأن العين تلقت منه خصائصا ميّزته عن غيره من المناظر فأصبح في نظرنا جميلاً.

وبالإضافة إلى الجميل يحلل كانط مفهوم الجليل أو السامي Sublime وفي سياق مقارن بينه وبين الجميل يقول: « الجميل والسامي يتفقان في أنهما يلذّان بنفسيهما، وبالإضافة إلى ذلك في أن كل واحد منهما يفترض مقدّما حكم تفكير لا حكم حواس أو حكما منطقيا محدّدا؛ وتبعا لذلك فإن الرضا لا يتوقف على الإحساس، كما هي الحال في المُلائم، ولا على مفهوم معين، كما هي الحال بالنسبة إلى الرضا المتوقف على الخير؛ ومع ذلك فإنه يُردّ

إلى مفاهيم، وإن غير معينة، والرضا يرتبط بالتالي بمجرد العرض أو بالملكة التي يصدر عنها»(كانط، إ. **2005**: **152**–**153**).

يفوق تصور الجليل الجميل في طبيعته من حيث استقلاليته بذاته؛ دون الحاجة إلى سند حسي أو بناء عقلي يبرره بل هو يكفي ذاته بذاته، فهو يفوق قدرة العقل والحواس في إدراكه أو محاولة تفسيره، إن هذه الصعوبة جعلت من كانط يخصص لهذا المفهوم دراسة دقيقة أو مقاربة لكشف ثناياه. وذلك ما استدعى منه مقارنته بما هو معلوم وأقصد الجميل، فيستمر في إبداء الفروق بينهما:» ومع ذلك، ثمة أيضا فروقاً مهمة بين الاثنين بارزة للعينين، فجمال الطبيعة يتعلق بشكل الموضوع الذي يقوم في التحديد، وفي مقابل ذلك فإن السامي يمكن أن يوجد أيضا في موضوع غير ذي شكل بمقدار ما يمثل اللامحدود فيه أو بفضله، وتضاف إليه بالفكرة فكرة شموله»(كانط، إ. **2005**: **153**).

في هذا النص يحدد كانط طبيعة كل من الجميل والسامي حيث يرتبط الأول بالطبيعة والثاني شامل ولامحدود، ثم يستطرد: «وهكذا يبدو أن الجميل يناسب عرض مفهوم غير محدد للذهن، بينما يناسب السامي عرض مفهوم غير محدد للعقل. وهكذا نجد أن الرضا الخاص بالجميل مرتبط بتمثّل الكيف، والرضا الخاص بالسامي مرتبط بتمثل الكم.»(كانط، إ. **2005**: **153**) في هذه المقارنة التي يجريها كانط بين المفهومين يسعى إلى تأكيد فكرة أن الجميل قد يقتضي حضور الشيء أو استدعائه في المخيلة، بينما يغيب في حالة

الجليل الذي يفرض علينا شعوراً بالعظمة بمجرد تمثله وإدراك تلك العظمة.

لهذا الغرض يرتبط سرورنا ورضانا في الجميل بالكيف أي بالشكل المحدود، في حين يكون في الجليل مقترنا بالكم، بالنظر إلى اجتياحه لنا، فإذا كان إحساسنا بالجمال يبعث في أنفسنا الإعجاب وهدوء النفس، فإن الجليل يُحدث فينا ارتباكاً واضطرابا. إن مثل تلك الحركة التي يثيرها الجليل في النفس تكون حسب كانط على مظهرين: الأول الجليل الرياضي السكوني Statique والثاني الجليل الطبيعي الديناميكي Dynamique، يرتبط الأول بالمعرفة والثاني بالإرادة ويصف الرياضي فيقول:» حين نقول عن شيء ليس فقط إنه كبير، وإنما إنه كبير ببساطة وعلى وجه الإطلاق، ومن كل النواحي (ومن وراء كل مقارنة) أعني إنه جليل، فإننا عندئذ سرعان ما نجد أنه لا يُسمح بالبحث خارج هذا الشيء عن مقياس ملائم له.

إنه مقدار لا يساوي غير نفسه. وينتج عن هذا أن الجليل لا ينبغي أن يُنشد في أشياء الطبيعة، وإنما في أفكارنا.»(كانط، إ. **2005**: **159**–**160**) وفي هذا إقرار باستقلالية الجليل عن الحواس ولا توجد إمكانية قياسه وقد عبر عن ذلك قائلاً:» الجليل هو الذي بمجرد إمكان تعقله، يكشف عن وجود ملكة في النفس تتجاوز كل مقياس للحواس»(كانط، إ. **2005**: **160**).

ويتعين الجليل الديناميكي من جهة أخرى؛» في الطبيعة وهي في حالتها البدائية (...) من حيث إنها تحتوي على عظمة فقط، لأنه في تمثّل من هذا النوع لا تحتوي الطبيعة على ما يمكن أن يكون

هائلاً (سواء باهراً أو مروعاً)؛ إذ إن المقدار الذي يُدرك مهما أريد له أن يكبر ويتعاظم يبقى قابلاً لأن تجمعه المخيلة في كلية، ويكون الشيء هائلاً حينما يُعدم بعظمته الهدف الذي يكونه عنه المفهوم»(كانط، إ. **2005**: **163**).

ذلك هو المظهر الثاني للجليل عندما يتجلى في الطبيعة بعظمة تفوق قدرة الإنسان على استيعابها، مثل الظواهر الطبيعية كالأعاصير والبراكين والمحيط الثائر،...وكلها تحولات تبعث في أنفسنا تصورا عن القوى التي تختفي وراء هذه العظمة، وفي الآن نفسه ندرك ضآلة قِوانا الحسية وسمو ملكتنا المفكرة (العقل)، باعتباره انغمس في استشعار هذا الجلال. ومن هنا فأحكام الجليل لا تقع على الموضوعات الخارجية، بل على حالتنا النفسية ونحن نعاين تلك الموضوعات.

ارتبط البحث الجمالي الكانطي إلى جانب المفاهيم السابقة بمفهوم محوري تم توظيفه بشكل دقيق هو مفهوم الغائية، وقد قال فيها:» لو أردنا توضيح ما هي الغاية تبعا لتعيّناتها الترانسندنتالية (من دون افتراض شيء تجريبي، مثل الشعور باللذة)، لقلنا إن موضوع المفهوم غاية بالقدر الذي به المفهوم سبب لها (السبب الحقيقي لإمكانيتها)؛ وعلّية مفهوم بالنسبة إلى موضوعها هي الغائية (forma finaliSالصورة الغائية)»(كانط، إ. **2005**: **122**) إن مفهوم الغاية هنا هو وجودها المستقل عن تحقيق اللذات مثلاً، بل في صورتها كعلية للمفهوم الخاص بموضوع المعرفة، « فنحن نتمثل

الغاية حيث نفكر ليس فقط في معرفة الموضوع، بل أيضا في الموضوع نفسه (شكله أو وجوده) من حيث هو أثر ممكن فقط بواسطة تمثّل المعلول نفسه.

وحينئذ يكون تمثّل المعلول هو المبدأ المعيِّن لعلته ويسبقها»(كانط، إ. **2005**: **122**) من خلال هذا الكلام يتبدى لنا تصور كانط للغاية بأنها تلازم موضوع المفهوم؛ فهي علّيته أو سبب وجوده. وحتى إن كان يسبقها أنطولوجياً إلا أنها ثاوية فيه إلى حدٍ كبيرٍ، فالغاية إذاً لابد أن تكون موضوعا لتصور ما، وهذا التصور هو علة الموضوع وهو ما يحدد سببية نهائية، أي لا تتبعها غايات أخرى.(الصباغ، ر. **2002**: **29**) وحرصاً منه على أن لا يكون ذلك التصور مفروضا على الموضوع اعتبر كانط أن الجمال هو الصورة الغائية لموضوعه، أي أنه مُدرك في هذا الموضوع دون تصور لغاية من الغايات. « إذاً يمكن أن تكون الغائية من دون غاية، وذلك بحيث لا نضع أسباب هذا الشكل في إرادة، وإنما بحيث نستطيع مع ذلك أن نجعل توضيح إمكانيتها مفهومة من قِبَلنا باستنتاجها من إرادة فحسب.

والحال أننا لسنا مضطرين أن نفهم ما نلاحظه باستمرار في ما يخص إمكانيته من منظور العقل. كما أننا نستطيع أن نرصد غائية بحسب الشكل على الأقل، من دون أن نضع غاية في أساسها.»(كانط، إ. **2005**: **122**–**123**) إنها غائية من دون غاية، يكون الموضوع غائيا عندما يوفر اللذة؛ أي حين يوجه ملكات

المعرفة إلى تصور الموضوع ذاته دون أية غاية موضوعية خارجه. إنها النتيجة التي تتولد عن لحظتين اثنتين يفرزهما التحليل الكانطي لمفهوم الذوق.

ب-مفهوم الذوق:

يتحدث كانط عن أولى خصائص حكم الذوق فيقول:» إن حكم الذوق يعين موضوعه (من حيث هو جميل) من وجهة نظر الرضا، مدّعيا موافقة كل واحد على الحكم نفسه، كما لوكان موضوعيا. فقولي: هذه الزهرة جميلة يعني في الوقت نفسه ادعاءً أنها تسرّ كل الناس. إن إرضاءها غير ناجم عن عطرها؛ لأن رائحتها قد تُرضي هذا، وقد تثير الدوار في ذاك، (...) اللهم إلا أن جمالها خاصية في الزهرة نفسها، ولا يتوقف على اختلاف الرؤوس والحواس. «(كانط، إ. **2005**: **200**)

عندما نحكم على موضوع ما بأنه جميل يساورنا شعور بأن الجميع يشاركنا هذا وكأن جماله هذا موجوداً فيه ويمكن للجميع أن يروه، إلا أن الأمر في الواقع مختلف من حيث أننا لا ندرك ذلك الموضوع بنفس الكيفية وبالتالي قد لا تتوحد أحكامنا. وقد عبّر عن ذلك فقال: «لأن قوام حكم الذوق هو في أنه لا يُسمي شيئا جميلا إلا تبعا للخاصية التي يتفق بموجبها مع طريقتنا في إدراكه.»(كانط، إ. **2005**: **200**) وهذا معناه أننا في حكم الذوق نكتفي فقط بقناعتنا بأن الموضوع جميل بالنسبة لنا، ولا يهمنا إن كان كذلك عند الآخرين.

كما أن حكمي هذا لم يكن اقتداءا بهم وإنما هو قبلي بالنسبة لي، ومستقل عن أي تأثير أو ضغط. إلا أن القول بقبليته لا يعني أنه

قائم على مفاهيم؛ ذلك أن القبلي دائما يتأسس على مفهوم الشيء ويتضمن مبدأ معرفته. لهذا يجب أن نذكّر دائما أنه حكما جمالياً وليس معرفياً. وفي تعيينه لثاني خاصية يتميز بها حكم الذوق يتحدث قائلاً:» ليس حكم الذوق قابلاً للتعيين بأسباب برهانية إطلاقا، كما لو كان ذاتياً بحتاً، فإذا وجد شخص أن بناءا ما أو منظرا أو قصيدة ليست جميلة، فإنه أولا لن يدع الاستحسان الذي يقره مائة شخص يمدحونها جميعاً، يُفرض عليه في داخله»(كانط، إ. **2005**: **202**).

يتعذر على المرء أن يبرهن على حكم ذوقه كما لو كان حكماً معرفياً، بل هو يحمل تلك القناعة في نفسه معتقداً أنه على الجميع مشاركته في ذلك، ومن ناحية أخرى يرى: «صحيح أنه يمكن أن يسلك كما لو كان هذا الشيء يسرّه هو أيضاً، حتى لا يُتهم بالافتقار إلى الذوق؛ لا بل قد يساوره شك في أنه عمل على تهذيب ذوقه بالتعرف على كمية كافية من الأشياء من نوع خاص (مثل إنسان يعتقد أنه يرى في البعيد غابة، بينما يرى الآخرون كلهم أنها مدينة، فيأخذ يشك عندئذ في حكم نظره الخاص)»(كانط، إ. **2005**: **202**–**203**).

إذا كانت اللحظة الأولى هي الطبيعة الفردية لحكم الذوق، فإن الثانية تعبر عن استقلاليته عن أية ضرورة منطقية أو بناء برهاني. فعندما أجد أن منظرا ما أو قصيدة أو عطرا غير جميل ولا يروق

لي؛ بينما يجمع الآخرون أنه جميل. لا يمكن أن يقنع أحدنا الآخر بحكمه أو يبرهن عليه ببرهان أو استدلال منطقي.

فلا اتفاقهم كافٍ للتأثير عليّ بأن ما أراه جميلاً، ولا قناعتي يمكن أن تستند على أي استدلال من شأنه أن يبررها على الأقل حتى لا أُتهم بأنني أفتقر إلى الذوق. هكذا هي إذاً طبيعة حكم الذوق مستقل بذاته حتى لو اجتمعت له كل الأسباب و المبررات، وتآلفت الحجج في سبيل إثباته أو نفيه يبقى على حاله قائما بذاته.

يقرر كانط بأن حكم الذوق هو حكم جمالي، ما طبيعة هذا الحكم؟ وقد أخضعه للوظائف المنطقية للحكم، وهي: الكيف والكم والعلاقة والجهة. أما في ما يخص فحص الحكم الذوقي من جهة **الكيف**، يقول:» نسمي الرضا الذي نربطه بتمثل وجود موضوع مصلحة. ومن هنا يكون لها دائما ارتباط بملكة الرغبة، إمّا لكونها أساس تعيينها، أو لأنها على ارتباط لا ينفصم بهذا الأخير.

والآن لو طُرِح السؤال: هل شيء ما جميل؟ فإن المقصود ليس أن نعرف هل نحن أو أي شخص آخر مهتمون، أو يمكن أن نهتم بوجود الشيء، وإنما كيف نحكم عليه بمجرد مشاهدتنا له (عيانا أو تفكيرا)»(Kant ,E . 2007 : 08) كثيرا ما يحكم الإنسان على الأشياء بالحُسن أو بالقُبح بناءا على ما تحققه له من مصلحة أو نفع ما، وهو ما يسميه كانط الرضا وهو نوع من القبول للشيء قد يكون سابقا للحكم أو ملازما له، وفي هذا المستوى يحدد كانط الجميل في ذلك

الذي يمكننا إدراكه من دون أن نكترث لوجوده أو قربه منا؛ مما يعني إبعاد للجانب الحسي من مفهوم الجمال.

من ناحية أخرى لا توجد مسألة مغرية للفلاسفة كمسألة الجميل، فبحثوا في الموضوعات التي يمكنها أن تُنعت بالجمال؛ هل هو موجود في الأشياء المحسوسة أم في ما هو عقلي مجرد؟ وقد قدم كانط إجابته عن هذا السؤال، ورغبة منه في الكشف عن طبيعة وثنايا الجميل قال:» وإنما المراد هو فقط أن نعرف هل مجرد تمثّل الموضوع مصحوب في داخلي برضا، مهما كنت غير مكترث لوجود موضوع هذا التمثل.

من هذا يُشاهَد بسهولة ما يهم ليُقال عن الشيء أنه جميل وإثبات أن عندي ذوقاً، هو ما أكتشفه في نفسي بحسب هذا التمثل، وليس ما به أعتمد على وجود الشيء»(Kant, E. 2007 : 09) يتأسس حكم الذوق على ذلك الأثر الذي يخلّفه الموضوع الجميل فينا، ولا يقتضي ذلك استحضاره مادياً. «وعلى كل امرئ أن يُقرّ بأن أي حكم على الجمال يمتزج فيه أقل مصلحة هو حكم غير نزيه، ولا يمكن أن يكون حكم ذوق محض. فللقيام بدور القاضي في أمور الذوق، يجب عدم الاهتمام إطلاقا بوجود الشيء، بل على العكس يجب أن يكون المرء غير مكترث لما يتعلق به»(Kant, E. 2007 : 09).

في هذا النص حسم بخصوص نزاهة تمثل الجميل عن أية مصلحة يمكنها أن تقترن به، بل يشترط كانط خلوّ الحكم بالجمال من النفع أو الحاجة. وامتدادا لمقاربته هذه يستدرج مفهومي الملائم L'agréable والخيِّر Le bon فيقول:» للملائم والخيّر معاً علاقة بملكة الرغبة، ومن هنا فإن الأول يحمل معه رضاً مشروطاً إلى درجة مَرَضية، بينما يحمل الثاني رضاً عملياً محضاً لا يعيّنه تمثل الشيء وحده، بل الربط المتمثَّل بين الذات ووجود الشيء في الوقت نفسه.

فليس ما يسرّ هو الشيء على حدى، وإنما وجوده أيضا. ومن هنا كان حكم الذوق تأمليا بحتاً، أي حكما غير معني بوجود الشيء وإنما بربط طبيعته بالشعور باللذة والألم لا غير»(Kant , E. 2007 : 15) وفي هذا فحص للحكم الإستطيقي من حيث **الكم**، وقد استعان كانط بمفهومي الملائم والخيّر من أجل بيان الفرق بينهما وبين الجميل، ذلك أن كلا المفهومين يرتبط بالرضا لكنه يرتبط في الحالتين بالمصلحة، باعتبار أننا نختار ما يلائمنا ونستحسن ما هو خير لنا، وهذا ما يجعل العقل يتدخل في اختيارنا ويُملي علينا ما نفعله من ميل ورغبة، فينتج عن ذلك أن يكون حكمنا عليها غير حر.

أما حكم الذوق فعلى العكس من ذلك، لا تسبقه المصلحة ولا يتقيد بشرط أو غاية. وهكذا هو كانط دائما يجد بأن أي فعل إنساني حتى يكون ناجحا يشترط أن يكون حراً قبل ذلك؛ والتجربة الجمالية تحديدا تحقق نوعا من التوازن داخل الذات وانفتاحا على كل قواها؛ فالجميل يخاطب الذهن والحواس في الوقت نفسه، الفهم

والمخيّلة، العقل والشعور،... كما يجعل كل تلك الثنائيات في حوار أشبه باللعبة التي يشترك فيها الجميع.(Barni, J. 1850 : 07) هذا ويتميز حكم الذوق عن الأحكام المعرفية بأنه ذاتي بينما هي منطقية، وبالتالي موضوعية.

وما هو جمالي يعد حكما لا يحدده إلا المبدأ الذاتي، بمعنى أن تمثّله يتعلق كليا بالذات؛ أي بشعورها الحي والذي يندرج تحت اسم الشعور باللذة والألم، بخلاف الحكم المعرفي الذي يتعلق بالموضوع نفسه(Lories , D . 1981 : 486) لهذا يذهب العديد من الفلاسفة إلى القول بأن مسألة الجميل يحكمها عاملان: الأول موضوع الجمال الذي يتضمن خصائصا ما تجعله جميلاً، وهناك ظاهرة ما يحدثها ذلك الموضوع فينا.

وفي هذه الحالة يُطرح السؤال عن خصائص الموضوع الذي نحكم عليه بالجميل؟ وكذلك طبيعة الظاهرة التي ينتجها فينا الموضوع المُسمى جميلاً؟ نفترض إجرائيا أن موضوع الجميل واحد ولا يقبل التغيير، وهو جميل دائما وفي كل مكان. وأن الظاهرة المترتبة عنه تأخذ طابعين: فهي حسية؛ إنها إحساس ملائم ومناسب يسببه لنا الموضوع، إنه باختصار الرضا. وهي أيضا فكرية أو هتاف من العقل يعلن فيه بأن الموضوع جميل؛ إنه حكم عليه(Jouffroy . 1845 : 03) وما مفهوم الرضا هنا إلا ذلك الإحساس الداخلي الذي يتلازم مع تمثلي وجود الموضوع؛ وحكم الذوق هو ما يتخلله الرضا الخالص والنزيه بخلاف أحكام المصلحة كقولنا « هذا ملائم «

حيث يكون الرضا النفعي الذي يرتبط في علاقة مع ملكة الرغبة التي تقتضي وجود الشيء الذي ينفعنا؛ وهي التي تمثل المبدأ المحدد له (Lories, D. 1981 : 487).

وفي مقابل هذا فإن ما يعنيه كانط بنزاهة الحكم مثل قولنا « هذا جميل» أمر واضح، حيث أن حكم الذوق لا يستدعي مصلحة تقترن بوجود الشيء الذي نحكم عليه. وما يهم في مثل هذا الحكم هو ما يمكنني اكتشافه في ذاتي وأنا أتمثل الموضوع وليس في كيفية ارتباطي بوجوده. إن هذه التجربة تحقق لي نوعاً من الحرية والاستقلالية عن الموضوع كشيء موجود، في حين أن قوة حضوره بداخلي تحقق لي الرضا الذي يتجاوزني فيتملكني شعور بأن الجميع يقاسمني هذا الحكم، فما حدود هذا القول؟ وهل يمكن الحديث عن حس عام بين الناس؟

ج- الحس العام المشترك:

يجد كانط في حكم الذوق طبيعة خاصة، إذ أنه يمنح صاحبه قناعة بأن حكمه هذا عام ويتفق عليه مع الجميع، حيث يقول في ذلك :» يطالب حكم الذوق كلّ إنسان بأن يوافق عليه؛ وكل من يعلن عن شيء أنه جميل فإنما يزعم أيضا أنه يجب على كل إنسان أن يوافق على الموضوع المعني وأن يعلن هو أيضا عنه أنه جميل. وهكذا فإن الواجب في الحكم الجمالي لا يُعبّر عنه إلا مشروطاً، حتى ولو توفرت جميع المعطيات المطلوبة لإصدار الحكم. إننا نحرّض كل

إنسان على الموافقة لأن بين أيدينا سبباً لفعل ذلك يصلح للجميع»(كانط، إ. **2005**: **144**).

من المفارقات الواضحة في التصور الكانطي لحكم الذوق، أنه يقرر من جهة طبيعته الفردية وخصوصيته، وبأنه عام بل وكوني من جهة أخرى. وفي محاولته لفك هذا التعارض يعتبر أننا عندما نحكم على شيء ما بأنه جميل فأنا أملك يقينا بأنه يُرضي جميع الناس مثلما يُرضيني. ومع هذا فالحكم الذي أصدرته ليس نظرياً: فهو لا يستند على مبادئ المعرفة، فأحكام الذوق ليست أحكاماً منطقية، كما أنها ليست عملية: حيث لا تقوم على مبادئ الإرادة كما هو حال الشعور الأخلاقي. بيْد أن ملكات المعرفة التي تدخل في لعبة أحكام الذوق تعمل عند جميع الناس بنفس الكيفية(Barni, J. 1850 : 51) .

إن هذه الكونية التي تتصف بها الشروط الذاتية التي تعمل بمقتضاها ملكاتنا المعرفية قد وضعها كانط تحت اسم الحس المشترك. ما مدى صحة هذه الفرضية؟ خاصة وأنها بذلك تستدعي أن نتشارك في كل المعارف، وأن تكون ملكاتنا المعرفية في المستوى نفسه. كما أن ذلك الانسجام بين المخيلة والفهم في أحكام الذوق لابد أن يكون كونيا ومشتركاً. إنها مشروطة بكل لحظة نصدر فيها حكماً بجمال شيء ما، لأننا لا نستند على أي مبدأ موضوعي ولا على التجربة، فإننا نحتاج أن يقاسمنا الآخرون هذا الرأي. وهكذا فإن الضرورة الذاتية التي تلازم كل أحكام الذوق؛ أو العلاقة الضرورية بين موضوع هذا الحكم ورضى أنفسنا ستتحول إلى ضرورة موضوعية، أي بمعنى أننا نوسع هذه العلاقة إلى كل من هو قادر على الحكم.

يحلل كانط شرط الضرورة الذي يوجبه حكم الذوق فيقول:» لو كان لأحكام الذوق (ومثلها أحكام المعرفة) مبدأ موضوعي، لكان لمن يصدرها وفق هذا الأخير أن يدّعي لحكمه ضرورة غير مشروطة. ولو كانت خالية من أي مبدأ، كما في أحكام ذوق الحواس البحت، لما كان خطر على بال أحد أنه يمكن أن تكون لها أية ضرورة.

يجب إذاً أن يكون لها مبدأ ذاتي، يُعيّن بواسطة الشعور فقط وليس بواسطة مفاهيم، ومع ذلك بشكل صالح عامة، ما يُرضي أو لا يُرضي»(كانط، إ. **2005**: **144**–**145**) تملك أحكام الذوق ضرورة من نوع خاص، فهي ليست موضوعية كما في المعرفة وليست من دون مبدأ كما في الذوق الحسي، بل تكمن ضرورتها في مبدأ الذات الذي ينتج عن الشعور وليس عن أي شيء آخر والذي يصفه؛ «بيْد أن مبدأ كهذا لا يمكن أن يُعتبر إلا كحس عام؛ وهو يختلف اختلافا جوهريا عن الفهم العام الذي يُسمّى أحيانا أيضاً حساً عاماً (sensuscommunis) ويرجع ذلك إلى أن هذا الأخير لا يحكم بموجب الشعور، وإنما دائماً بموجب مفاهيم، علمًا بأنه يكون قد تمّ تمثّلها بموجب مبادئ غامضة لا غير.

إذاً مع افتراض أن ثمة حساً عاماً ، أقول: مع افتراض وجود حس عام مثل هذا يمكن أن يُطلق حكم الذوق»(كانط، إ. **2005**: **145**). بعيدا عن المفاهيم والبنى العقلية تحدث كانط عن الشعور بوصفه المبدأ الذي تُبنى عليه ضرورة الأحكام الجمالية. فلحكم الذوق ضرورة خاصة به؛ بمعنى أن هناك علاقة ضرورية بين الجميل والشعور باللذة، وهي تختلف من هذه الناحية عن الضرورة النظرية

المستمدة من قوانين العقل الأولية، كما تختلف عن الضرورة العملية. وعلى اعتبارها نموذجية فإننا عند حكمنا على الجميل نشعر بالإلزام _ ليس ذلك الذي يقوم على التصورات العقلية ولا على السلوك العملي_ وإنما على الذوق العام أو الحس المشترك commonsense . ومن الواضح أن وجود مثل هذا الحس المشترك سيسمح لنا بتفسير الأعمال الفنية النموذجية تفسيراً يمكّنها من البقاء خالدةً (حلمي مطر، أ. **1998**: **114**).

إن التناغم الذي يحصل بين قوى النفس (المخيلة والفهم) والموضوع الجميل، وما يترتب على ذلك من توافق وانسجام يفترض حسب كانط وجود الحس العام المشترك. وهوفَرَضٌ لا تحكمه المبادئ العقلية ولا التجريبية، بل اليقين الذي يتملك الإنسان ساعة إحساسه بما هو جميل؛ فيفيض عنه ذلك الشعور لكي يصل للآخرين.

يبدو كانط في مثل هذه الحالة متعسفا في افتراض ما أسماه بالحس العام، لذا يجد نفسه ملزما على تبرير هذه الفرضية؛ أو على الأقل تفسيرها وهذا ما يبدو في التعليل التالي:» إننا في جميع الأحكام التي نعلن فيها عن شيء أنه جميل، لا نسمح لأحد أن يكون له رأي آخر؛ وعلى الرغم من أننا لا نكون قد أقمنا حكمنا على مفاهيم وإنما وضعنا في أساسه شعورنا لا غير، وذلك ليس بكونه شعوراً شخصياً وخاصاً بنا، وإنما كشعور عام.»(كانط، إ. **2005**: **146**–**147**).

إنه نوع من التشارك في الحكم أو لنسميه إجماعا على حكم الذوق الذي غالبا ما كنا نختلف بخصوصه بحجة أن لكل ذوقه، والذي لا يمكن أن يكون موضوعا للنقاش.»والحال أن هذا الحس العام لا يمكن أن يؤسَّس على التجربة من أجل هذه الغاية، كونه يهدف نحو تبرير الأحكام التي تحتوي على واجب: إنه لا يقول بأن كل إنسان سوف يتفق مع حكمنا، وإنما **يجب** على كل إنسان أن يوافق عليه»(كانط، إ. **2005**: **146**–**147**) يستحضر كانط مجددا مفهوم الواجب لكن هذه المرة في الجمال، هل هو واجب أخلاقي؟ وما الذي يبرره؟

إنه الحس العام الذي لابد أن يتحقق باسم الواجب دائماً، ويستطرد شارحاً لهذا المبدأ فيقول: «ثم إن الحس العام الذي أُعطي هنا حكم ذوقٍ خاصٍ بي كمثل عن حكمه، والذي يحملني على أن أعطي لحكمي لهذا السبب صلاحية **نموذجية**، هو ليس إلا معياراً مثالياً، وبافتراض معيارٍ مثالي كهذا أستطيع أن أجعل من حكمٍ يتوافق معه ومن كل رضا بشيء يتم التعبير عنه في حكم مماثل، قاعدة تصلح بحق لكل إنسان»(كانط، إ. **2005**: **147**) يضع فيلسوف النقد نموذجاً يتمثل في حكمه الخاص الذي سيصبح عامّا، وذلك بناءً على فكرة ما يجب أن يكون عليه الذوق «ذلك أن المبدأ نعم ذاتيّ فقط، إلا أنه على الرغم من ذلك ذاتيّ– عام (فكرة ضرورية لكل إنسان).

وحينما يتعلق الأمر بإجماع أشخاص مختلفين يُصدرون أحكاماً كهذه يكون له أن يُطالب بموافقة عامة، كما لو كان موضوعياً»(كانط، إ. **2005**: **147**) وهنا يمكننا أن نتساءل : ما الذي

يريده كانط من هذا الادّعاء على حدّ قوله؟ وهل في إمكان أي منّا أن يملك قناعة وجود حسّ عام يمكّنه من الاستحواذ على اعتراف الآخرين بصدق حكمه؟ وكيف يمكننا تفسير اختلاف الناس في الأذواق وبالتالي في الأحكام؟

يصف كانط الحس العام بالمعيار غير المحدد وهذا لأنه لم يتبين مصدره بشكل دقيق، أو هذا ما يحاول الإقناع به. فهو تارة يُرجعه إلى الواقع كمبدأ مكوِّن لإمكانية التجربة، وتارة أخرى إلى العقل كمبدأ يعلو عليه وينظّمه. ونجده أكثر ميلاً إلى الاحتمال الثاني فيبدو ذلك المبدأ الذي يفوق العقل أشبه بالواجب؛ حيث يمثل سلطة تُملي الأوامر أو تُشرّع خاصة عندما يتعلق الأمر بضرورة توحيد الأذواق، أو بالأحرى الموافقة عليها. وقد وجد كانط كعادته في العقل ملاذه الوحيد في تحقيق مطلب إنتاج إجماعٍ في الشعور، باعتباره الضرورة الموضوعية لتوافق شعور كل إنسان مع مشاعر الآخرين. إنه نوع من الائتلاف والتواصل أراده صاحبه أن يندرج تحت اسم الحس العام؛ كما يكون حكم الذوق نموذجاً لتفعيل هذا المبدأ.

إذا كان طموح كانط في هذه المسألة هو توحيد أو اتفاق الناس على الأحكام الجمالية، فإن هذا المطلب لا يعدو أن يكون مجرد مبدأٍ عقليٍ خالصٍ. أو معياراً مثالياً في التصور الكانطي، كما يجب أن نذكّر دوما بأنه افتراض يقترحه من أجل إضفاء الموضوعية أو الشمولية على حكم الذوق، وهو الأمر الذي يتعذر تصديقه أو

قبوله، وقد نجد في ما قاله أحد الباحثين في علم الجمال «نوكس» أبلغ رد على هذا التصور إذ قال:» فالضوء الذي ينير جمال الطبيعة والفن ليس مختبئاً في ظلمة العقل الداخلية.

هو أكثر من انسجام عفوي بين القوى الذهنية. الفن هو نفسه سبب لاشتراكٍ أصيل بين الناس، وتأثيره الحقيقي إنما يكمن في مدى تبديله في خبرتنا وتوسيعه وتعميقه لوعي الناس»(نوكس، أ. **1985**: **67**) ومع هذا لا يمكن إنكار إحدى أهم الغايات التي ينشدها كانط من وراء قوله هذا، وهي كونية الذوق الإنساني كإطار مرجعي لمشروعه التواصلي (communication) الذي ينخرط في الرؤية الأنوارية التي ما فارقته طيلة مشواره النقدي.

قائمة المصادر والمراجع

1- باومر فرانكلين ل-(**1987**) ، الفكر الأوربي الحديث القرن **17** ، تر: أحمد حمدي محمود ، جمهورية مصر العربية: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

2- الصباغ رمضان (**2002**)، كانط ونقد الجميل ، ط**1**، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

3- كانط إيمانويل (**2005**)، نقد ملكة الحكم، تر: غانم هنا، ط**1**، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

4- مطر أميرة حلمي (**1998**)، فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها)، ط**1**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

5- نوكس ،أ (**1985**)، النظريات الجمالية (كانط ، هيغل ، شوبنهاور) تر: محمد شفيق شيا، بيروت: منشورات يحسون الثقافية.

6- Barni Jules. (1850). Examen de la critique du jugement, Paris : librairie philosophique de Ladrange.

7- Cherif Toufik.(1982-1983). Esthétique et critique chez Kant, thèse de diplôme des recherches approfondies en philosophie, faculté des sciences humaines de Tunis, Tunisie.

8- Cousin Victor .(1829). , Cours de l'histoire de la philosophie du 18eme siècle, Tome 01, Paris : Pichon et Didier, éditeurs.

9- Frantz Emile .(1882). Essai sur l'esthétique de Descartes, Paris : librairie Germer Baillière.

10-Jouffroy.(1845). Cours d'esthétique, Paris : librairie de L. Hachette.

11-Kant Emmanuel.(2007). Analytique du beau , traduction de Jules Barni, Paris : édition Hatier poche.

12-Lories Danielle. (1981). Kant et la liberté esthétique, In revue philosophique de Louvain, 4ème série, T 79, N°44, pp : 484-512.